مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 15 / العـــدد: 01 (2025)، ص 779 - 792

من إشكاليّات المصطلح في الدّرس البلاغي

الالتفات أنموذجا

أ.د/ تيـــرس هشام*
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الجيلالي ليابس بسيدي بلعباس
hichem.tires@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2025/05/01 تاريخ القبول: 2025/05/23 تاريخ النشر: 2025/06/01

ملخص:

يسعى هذا المقال إلى تسليط الضوء على إحدى أهم الإشكاليات التي تعترض التحكم في المعارف وبلورة الأفكار وضبط المفاهيم وهي إشكالية المصطلح، ولئن ارتبطت هذه الأخيرة في الغالب الأعم بالدراسات النقدية المعاصرة التي تعاني الاضطراب والتعدد لكثرة الأصول والروافد فإننا هنا نتحول عن هذا إلى الدراسات البلاغية من خلال عرض عام للحمولات المعرفية والتباينات الاستعمالية التي ارتبطت بمصطلح الالتفات عند البلاغيين القدامى والتي استمر تأثيرها عند المحدثين من الدارسين.

Abstract:

This article aims to shed light on one of the most significant challenges in mastering knowledge, shaping ideas, and defining concepts — the issue of terminology. While this problem is commonly associated with contemporary critical studies, which often suffer from inconsistency and multiplicity due to their numerous sources and influences, our focus here shifts to rhetorical studies. Specifically, we offer a general overview of the intellectual implications and variations in usage associated with the *term* iltifāt *(shifting of address) among classical Arab rhetoricians, whose influence has extended into the work of modern scholars.*

قد يبدو ما يفصح عنه عنوان هذه الدراسة للوهلة الأولى على قدر غير هين من الغرابة، إذ أعتيد في تناول المسائل المتعلقة بإشكالات المصطلح والإيحاءات الدلالية والمفاهيمية المترتبة عنها أن تكون أكثر ارتباطا بقضايا النقد المعاصر في منجزه العربي، على اعتبار أن هذا الأخير لا يفتأ يمارس فعل التثاقف والإفادة من منجزات النقد الغربي بما في ذلك نقل الأجهزة المصطلحاتية المنبثقة عنه بما يرافق هذا النقل من توفيق في أحايين وتعثر في أخرى.

* أ.د. تيرس هشام.

غير أنّنا نسعى هنا –بشكل مغاير– إلى فحص التململ الذي نجده في كثير من مصطلحات الدرس البلاغي القديم الذي كان ملازما –إن لم نقل مندغما مستعصيا على الفصل– للتراث النقدي عهدئذ، وهو تململ قد لا يكون في جميع حالاته –كما قد توحي به ظلال الكلمة– عنوانا على الضعف أو غياب الفاعلية المرجوة.

على هذا، سينصب عملنا على محاولة تتبع التلوينات الدلالية التي طبعت مصطلح الالتفات[1] من خلال تواردِه في أهم الدراسات البلاغية والنقدية القديمة منها والحديثة (دون أن ندعي الحصر فذلك مما لا يدرك بحال) بغية الوقوف على كثافة حمولاته المعرفية وكثرة تعرجاته المفهومية، دون إهمال آثاره الجمالية على النصوص باختلاف مستوياتها، وقد اعتمدنا في ذلك المعيار الزمني التاريخي لظهور تلك الدراسات حتى نستطيع الوقوف على التطورات (بالمعنى الإيجابي وبدونه) التي واكبت المصطلح.

في كتاب "البديع" لأبي العباس عبد الله بن المعتز (296هـ)

بعد أن بسط القول فيما يراه الفنون الخمسة للبديع التفت عبد الله بن المعتز (296هـ) صاحب كتاب البديع إلى عرض محاسن الكلام والشعر، أول ما جاء به منها : "الالتفات"، يعرفه يقول:

« وهو انصراف المتكلم عن00 المخاطبة إلى الإخبار، و عن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر»[2].

إن الواضح من غير عناء ، أنّ ابن المعتز يعطي للالتفات تعريفين اثنين ، كلاهما يحمل معنى الالتفات اللغوي أي الانصراف ، أولهما انصراف من ضمير لآخر، وثانيهما انصراف من معنى لآخر، ثم يورد لذلك أمثلة، ترك بعضها للقارئ يحدد نوعها، فأوّل تلك الأمثلة إيراده لقوله تعالى:

« حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة »[3]صدق الله العظيم

ولقوله جلّ شأنه : « إن يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد »[4]صدق الله العظيم .

ولقوله أيضا : « وبرزوا لله جميعا »[5]صدق الله العظيم .

وهي كلّها أمثلة على ما ساقه في تعريفه الأول للالتفات، فكان الانتقال في الآية الأولى من الخطاب إلى الغيبة (كنتم /جرين بهم) و كان في الآيتين الثانية والثالثة انتقالا من التكلم إلى الغيبة (يذهبكم– الله).

ثم يدعم ابن المعتز ذلك بأبيات من الشعر منها قول الطائي:

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

فبعد أن كان الشاعر يخاطب ساكني نجد، صار يتكلم عنهم بضمير الغيبة (على ساكني نجد) وفي ذلك التفات.

وكذلك قول جرير:

طَرب الحمام بذي الأراك فشاقني لازلت في غلل وأيك ناضر[6]

فالتفات الشاعر في هذا البيت كان من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب .

إنّ هذه الأمثلة كلها تؤكد بجلاء أن ابن المعتز جعل الالتفات أول ما جعله، يدل على الانصراف في الضمائر، أمّا ما دلّ على الانصراف من معنى إلى آخر فلم يجعله إلاّ في ذيل تعريف له حين قال : « ...ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى آخر »، و بيان ذلك أنه لم يورد له إلاّ مثالا واحدا لم يعلق عليه ولم يذكر من أيّ الصنفين من الالتفات هو، وذلك قول جرير:

متى كان الخيام بذي طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام[7]

أتنسى يوم تصقل عارضيها بعود بشامة سقي البشام[8]

ولسنا ندري أأراد ابن المعتز الضرب الأول في البيت الأول، أي الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، أم أراد الضرب الثاني في البيت الثاني[9]، وهو الانصراف إلى معنى آخر، وهو بيت سنجده كثير الحضور عند غيره، مختلفا بعض الاختلاف، كما سيأتي تفصيله .

هذا إذن هو الالتفات كما ورد في كتاب البديع لمصنفه ابن المعتز على ضربين اثنين التفات عن ضمير والتفات عن معنى.

في كتاب " نقد الشعر " لقدامة بن جعفر (337هـ)

نجد الالتفات في هذا الكتاب واردا في باب نعوت المعاني، وبخلاف ما وجدناه عند ابن المعتز، يجعل قدامة بن جعفر مدار الالتفات على ضرب واحد، حده فيقول:

« وهو أن يكون الشاعر آخذا في معنى، فكأنه يعترضه إمّا شكّ فيه أو ظن بأن رادّا يردّ عليه قوله أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدمه فإما أن يذكر سببه، أو يحل الشك فيه »[10] وهذا ضرب من الالتفات لم يذكره ابن المعتز قبله، على أنّا سنجده فيما بعد عند بلاغيين جاؤوا من بعد قدامة، و كعادة الدارسين، ساق

ابن جعفر جملة من الأمثلة يسند بها حدّه في الالتفات، أمثلة سوف لن نسوقها كلها، بل البعض منها قارنينها بشروحات ابن جعفر عليها، وأوّل مثال ساقه هو قول المعطل في بني رهم من هذيل:

تبين صلاة الحرب منّا و منهم إذا ما التقينا والمسالم بادن

علق قدامة قائلا:

« فقوله بادن، رجوع عن المعنى الذي قدمه، حين بيّن أنّ علامة صلاة الحرب أنّ المسالم يكون بادنا والمحارب ضامرا».[11] ومن الأمثلة المسوقة كذلك، قول الرّماح بن ميّادة:

لا صرمه يبدو و في اليأس راحة و لا وصله يبدو لنا فتكارمه .

يقول ابن جعفر:

فكأنه (وهو) يقول: «وفي اليأس راحة » التفت إلى المعنى لتقدير أنّ معارضا يقول له ما تصنع بصرمه؟ فقال لأنه في اليأس راحة »[12].

وبذلك، حصر قدامة ابن جعفر الالتفات في ضرب واحد هو الرجوع إلى ما قدم من معنى، جوابا لسؤال أو دفعا للشك أو الاعتراض، فما هو الالتفات عند صاحب الصّناعتين؟

في كتاب الصناعتين " لأبي الهلال العسكري (395هـ)

نجد الالتفات عند صاحب الصناعتين على ضربين، احدهما ما كان ابن المعتز قد جعله تاليا في تعريفه، والآخر ما ذكره صاحب كتاب "نقد الشعر" يقول:

« الالتفات على ضربين، فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به »[13]وهو ما كان قد أشار إليه ابن المعتز، و قد أورد له أبو هلال نفس مثاله، وهو قول جرير:

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود شامة سقى البشام

غير أن أبا هلال علّق على البيت قائلا:

« ألا تراه مقبلا على شعره ...ثم التفت إلى البشام فدعا له .»[14]بيد أنّه يورد في هذا الضرب أيضا مثالا كان ابن المعتز قد أورده للتمثيل للالتفات من ضمير لآخر، وهو قول الشاعر:

طرب الحمام بذي الأراك فشاقني لازلت في غلل و أيك ناضر

قال أبو الهلال:

« فالتفت إلى الحمام فدعا له»[15].

وأمّا الضرب الثاني فهو الذي كان قد اقتصر عليه قدامة في كتابه ذكر صاحب الصناعتين:

« والضرب الآخر أن يكون الشاعر آخذا في معنى و كأنه يعترضه شك أو ظن أن رادا يرد قوله أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعا إلى ما قدمه. فإما أن يؤكده، أو يذكر سببه، أو يزيل الشك عنه»[16] ويمثل له قدامة، قول المعطّل الهذلي:

تبين صلاة الحرب منا و منهم إذا ما التقينا و المسالم بادن .

ويقول:

« فقوله – والمسالم بادن– رجوع عن المعنى الذي قدمه ...حين بين أن علامة صلاة الحرب من غيرهم أن المسالم بادن والمحارب ضامر»[17].

ويسوق مثالا آخر ساقه قدامة أيضا، قول ابن ميّادة:

فلا صرمه يبدو و في اليأس راحة ولا ودّه يصفو لنا فنكارمه

ويعلق شارحا :

« كأنه يقول – و في اليأس راحة– و التفت على المعنى لتقديره أن معارضا يقول له وما تصنع بصرمه ....فيقول لأنه يؤدي إلى اليأس وفي اليأس راحة »[18]و لسنا بحاجة إلى تبيان أن هذا التفسير أوضح وأجلى ممّا جاء به قدامة في تعليقه على البيت نفسه.

في كتاب " العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده "لأبي الحسن بن رشيق القيرواني (464هـ) :

على خلاف ما ذكرناه عند سابقيه ،يقدم ابن رشيق حدا مغايرا تماما للالتفات، يقول: «وهو الاعتراض عند قوم ، و سماه آخرون الاستدراك، حكاه قدامة، وسبيله أن يكون الشاعر آخذا في معنى ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول»[19].

والاعتراض بمفهومه هذا ذكره ابن المعتز على حدة في آخر "كتاب البديع " وابن رشيق أقر بهذا وإن كان يرى أن سائر الناس جمع بينهما [20] بيد أننا نجد أن أبا هلال العسكري أيضا ينحو منحى ابن المعتز ، فيعقد بابا مفردا للاعتراض تلا مباشرة باب الالتفات. يسوق ابن رشيق أمثلة للاعتراض، أوردها من قبله قدامة وابن المعتز، من ذلك قول كثير:

لو أن الباخلين – و أنت منهم – رأوك تعلموا منك المطالا

فقوله "وأنت منهم" اعتراض كلام في كلام .[21]

وكذا قول النابغة:

ألا زعمت بنو عبس بأني – ألا كذبوا– كبير السن فاني

فقوله "كذبوا" اعتراض.[22]

وهو ممّا يعرف اليوم في تقنيات الكتابة بالجملة الاعتراضية التي لا تختص بالشعر، و التي يلجأ إليها الكاتب لزيادة توضيح أو إزالة لبس قبل أن يعود إلى سياق حدثه:

ثم يعود ابن رشيق و يثني على صنيع ابن المعتز في تعريف للالتفات، يقول:

« ...، وقد أحسن ابن المعتز في العبارة عن الالتفات بقوله:« هو انصراف المتكلم من الإخبار إلى المخاطبة، ومن المخاطبة إلى الإخبار » وتلا قوله تعالى: «حتّى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة » يونس :22 »[23]بعد هذا يعود ابن رشيق لذكر ضرب آخر يراه التفاتا، ويسميه الاستدراك، ومنه قول بشار:

نبئت فاضح قومه يغتابني عند الأمير و هل علي أمير

وذكر ابن رشيق أنّ ابن المعتز أنشد هذا البيت [24]وقد ذكره صاحب البديع في باب "الرجوع" الذي جعله بعد باب الالتفات مباشرة [25].

هكذا نجد أنّ مفهوم الالتفات عند ابن رشيق كان مضطربا لم يثبت على حال، كما لم يسر على مفهوم من سبقوه، فهو تارة اعتراض، وتارة أخرى استدراك، فيما اكتفى بمجرد الإشارة إلى مفهومه عند ابن المعتز، وإن كان قد أثنى على نظرة هذا الأخير.

في كتاب " مفتاح العلوم " لأبي يعقوب السكاكي (626هـ)

تجدر الإشارة أولا إلى أنّ السكاكي يفصل الحديث عن ظاهرة الالتفات في باب علم المعاني ثم يذكرها في باب وجوه تحسين الكلام (البديع) ويحيل القارئ إلى ما كان قد ذكره سابقا،« ومغزى هذا التأرجح أن ظاهرة الالتفات في تصوّر السكاكي (حسبما يقرره في كلا الموطنين) تسمو تارة فتكون ذات دور حيوي في لغة التعبير أو «مطابقة الكلام لمقتضى الحال»، وتنحط أخرى فلا تعدو أن تكون مجرد حلية خارجية أو طلاء شكلي للأسلوب [26]، ومهما يكن من أمر التصنيف فإننا نلاحظ أن صاحب المفتاح ركز على الالتفات بمعنى التفات الضمائر، يقول:

« واعلم أن هذا النوع ، اعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة ، لا يختص المسند إليه، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتهما ينقل كلّ واحد منها إلى الآخر، ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء علم المعاني، و العرب يستكثرون منه، ويرون الكلام، إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ باستدرار إصغائه وهم أحرياء بذلك »[27].

ومن الأمثلة التي ساقها السكاكي للالتفات، قول ربيعة بن مقروم:

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا وأخلفتك ابنة الحرّ المواعيدا

ثم عقب قائلا :

« فالتفت كما ترى حيث لم يقل: وأخلفتني »[28].

ودون عرض كل الأمثلة المسوقة في المفتاح، فإنّ ما يستشف من طريقة عرض السكاكي للظاهرة، إنّه لم يقتصر كسابقيه على تعريفها وإيراد الشواهد والأمثلة، بل التفت أيضا إلى كثير من خصائصها وغاياتها، فنجده مثلا يذكر الحاجة إلى الالتفات فيقول:

« وإذا كان الحاضر لمجلسكما ذا نعم عليك كثيرة، فإذا أخذت في تعديد نعمة عند صاحبك، مستحضرا لتفاصيلها، أحسست من نفسك بحاله كأنها تطالبك بالإقبال على منعمك، وتزين لك ذلك، ولا تزال تتزايد ما

دمت في تعداد نعمه، حتى تحملك من حيث لا تدري على أن نجدك، وأنت معه في الكلام، تثني عليه، وتدعو له وتقول: بأي لسان أشكر صنائعك؟ وبأية عبارة أحصر عوارفك الذوارف؟»[29].

كما نجد صاحب المفتاح يتحدث عن الآثار الجمالية التي يتركها الالتفات وإلى احتياجه لذوق رفيع مكين يمكن صاحبه من استكناه تلك الآثار يقول:

« ...، وهذا النوع قد يختص مواقعه بلطائف معان قلما تتضح إلا لأفراد بلغائهم، أو للحذاق المهرة في هذا الفن، والعلماء النحارير، ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك، كساه فضل بهاء ورونق، وأورث السامع زيادة هزة و نشاط ، ووجد عنده من القبول أرفع منزلة ومحلّ إن كان ممن يسمع و يعقل: « و قليل ما هم»* « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون » **»[30].

زيادة على ما أنف ذكره، فإنّ السكاكي نهج منهج التحليل التطبيقي للشواهد، أي أنه يورد المثل من القرآن الكريم أو الشعر مما يحوي التفاتا، ثم يمضي يبرز دقائقه ويتفحص مكامن الجمال فيه، وما يضفيه من دلالات كثيفة على الكلام.

في كتاب "المثل السائر في أدب الكتب و الشاعر "لضياء الدين بن الأثير (637هـ)

نجد مصطلح " الالتفات " عند ابن الأثير في باب الصناعة المعنوية ، و يعرفه :

« وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل أو من مستقبل إلى ماض»[31].

ويقسم ابن الأثير الالتفات إلى أقسام ثلاثة هي:

القسم الأول:

هو الانتقال في الضمائر، وهي ثلاثة: الخطاب، التكلم، الغيبة، كالانتقال من التكلم إلى الخطاب، ومن الغيبة إلى التكلم و غيرها، و قد مثل لكل حالة منها بشواهد من آي ومن شعر.

القسم الثاني:

هو الرجوع عن الفعل المستقبل إلى الأمر وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر[32] ومن أمثلة الأول، قوله تعالى:« يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء، قال إني أشهد الله وأشهدوا أنّي بريء ممّا تشركون»[33] .

ومن أمثلة الثاني قوله عز وجل : « قل أمر ربي بالقسط و أقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد وادعوه مخلصين له الدين »[34].

القسم الثالث:

هو الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل و عن المستقبل بالماضي[35]، فالأوّل كقوله تعالى: « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور »[36]والثاني كقوله عزّ وجلّ:

«ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض » [37].

إنّ ما يلاحظ في تناول ابن الأثير هو تحديده الدقيق لمصطلح الالتفات بأقسامه الثلاثة، وفصله عن مفاهيم أخرى كالاعتراض وغيرها، ويسمى صاحب المثل السائر الالتفات "شجاعة العربية " ذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يركبه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، والالتفات شجاعة العربية لأنها تختص به دون سائر اللغات، بيد أنّ هذا التخريج الذي ساقه ابن الأثير لتسمية الشجاعة لا يصمد أمام أحد المعاصرين الذي يرى أن: «متعلق الشجاعة الموصوف بها في مصطلح " الشجاعة العربية " ليست اللغة العربية بل هو الالتفات باعتباره لونا من ألوان الاجتراء على نظام تلك اللغة بالانحراف عن أنماطها ، و الانتهاك المطرد لتقاليدها و أعرافها »[38] وأن «القول بتميز اللغة العربية (أو أي لغة أخرى) بظاهرة الالتفات إنما هو مجرد دعوى مزعومة لا أساس لها من الصحة، ولا سند لها من الواقع »[39] بيد أنّ هذا الدارس لم يقدم ولو مثلا واحدا من أي لغة غير العربية كانت، عضد به ما ذهبت إليه من عدم اقتصار ظاهرة الالتفات على لغة الضاد وحدها.

في كتاب "الإيضاح في علوم البلاغة" للخطيب القزويني (739 هـ)

يبتدئ القزويني حديثه عن الالتفات بذكر تعريف السكاكي له، وإيراد أمثلته التي ساقها، ثم يأتي بما يميز هذا الأخير عن جمهور البلاغيين، فيقول:

« والمشهور عند الجمهور انّ الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها. وهذا أخصّ من تفسير السكاكي، لأنه بالنقل أن يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر بغيره منها »[40] بعد ذاك، يعرض القزويني لعديد الشواهد من الذكر الحكيم، ومن أشعار العرب، مما ورد فيه التفات، لاسيما ما يختص منه بالانتقال بين الضمائر الثلاثة (التكلم–الخطاب–الغيبة).

في "معجم المصطلحات البلاغية وتطورها" لأحمد مطلوب:

بعد أن قدم الباحث المعنى اللغوي للالتفات، راح يعرض لبدايات استعماله والإشارة إليه عند العرب القدامى، فمن ذلك إشارته إلى الزمخشري الذي ذكر التفاتات امرئ القيس، وقال:

« وتلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد »[41]. ويشير الباحث أحمد مطلوب إلى أن الفراء ذكره ولم يسمه[42]. كما يشير إلى أبي عبيدة، ويرجح أن يكون الأصمعي أول من سماه التفاتا، وذلك حين سئل عن التفاتات جرير[43]. وعلى العموم يسرد الباحث تعامل القدامى مع المصطلح كابن المعتز وقدامة والعسكري وابن رشيق وابن أبي الأصبع المصري والسكاكي وابن الأثير والقزويني، وما عرفه عندهم من اضطرابات واختلافات تضيق حينا وتوسع آخر من دلالات المصطلح.

كما نبه الباحث إلى ارتباط الالتفات عند بعض القدامى بمصطلحات أخرى كالاعتراض والصرف والانصراف، وبعد تتبع دقيق للمسار الذي سلكه مصطلح الالتفات منذ الوقوف عليه في أساليب العرب يرى صاحب معجم المصطلحات البلاغية أن ضياء الدين بن الأثير هو أكثر من أسهب في الكلام عن الالتفات[44] يقول في خلاصة عرضه للمصطلح: «وليس في كتب البلاغة الأخرى أوسع مما ذكر ابن الأثير، وإن كان القزويني رجع إلى السكاكي وأدخل الالتفات في علم المعاني وتبعه شرّاح تلخيصه كالسّبكي والتفتازاني والسيوطي والاسفراييني والمغربي»[45].

أخيرا يجدر التنويه إلى أن الباحث عقد جزءا خاصا منفصلا من المعجم لمصطلح "الاعتراض" وآخر لمصطلح "الاحتراس" وممثلا فيهما بما ساقه القدامى من شواهد بغض النظر عن تصنيفهم إياها تحت هذه التسمية أو تلك.

في معجم "البلاغة العربية" لبدوي طبانة :

نلفي الالتفات في هذا المعجم مادة منفصلة تليها مادة أخرى هي: التفات الضمائر، فأما الأولى فعرض فيها الباحث أنواع الالتفاتات كما قسمها البلاغيون، من انتقال في الضمائر إلى عدول عن معنى إلى آخر ممثلا بما ساقه جمهور البلاغيين من شواهد. أما في المادة الثانية التي سماها "التفات الضمائر" فيورد قولا لابن أبي الأصبع المصري يقصر فيه نوعا من الالتفات على كتاب الله وحده « وهو أن يقدم المتكلم في كلامه مذكورين مرتبين، ثم يخبر عن الأول منهما، وينصرف عن الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثاني، ثم يعود فينصرف عن الإخبار عن الثاني إلى الإخبار عن الأول»[46].

وذلك كقوله تعالى:« إن الإنسان لربه لكنود، وإنه على ذلك لشهيد»[47]يقول الباحث على لسان ابن أبي الأصبع: «انصرف عن الإخبار عن الإنسان إلى الإخبار عن ربه تبارك وتعالى، ثم قال منصرفا عن الإخبار عن الرّبّ عزّ وجلّ إلى الإخبار عن الإنسان: « وإنه لحب الخير لشديد »[48] قال: وهذا يحسن أن يسمى (التفات الضمائر)[49].كما نجد صاحب هذا المعجم يفصل هو الآخر الالتفات عن الاعتراض وعن الاحتراس .

في الشامل: "معجم في علوم اللغة العربية و مصطلحاتها "لمحمد إسبر وبلال جنيدي:

يموضع هذا المعجم أسلوب "الالتفات" ضمن البديع [50] ويقصره على الانتقال بين الضمائر الثلاثة (التكلم، الخطاب، الغيبة)، ممثلا لذلك بالأمثلة السائرة في هذا المساق، ليقف بعدها عند جماليات الأسلوب:

« ويأتي جمال الالتفات من أن القارئ أو السامع يكون مسترسلا مع الكلام، ثم يصدم عندما يتحول الكلام من ضمير إلى آخر، فيزداد تنبها وإحساسا بأهمية ما يقرأ أو يسمع »[51].

في معجم المفصل في علوم البلاغة لإنعام فوال عكاوي:

لقد عرض هذا المعجم [52]لمختلف أنواع الالتفات، عدا نوع التفات الضمائر الذي أشار إليه بدوي طبانة، وإن كنا نجد أن هذا المعجم المفصل اعتمد كثيرا على معجم المصطلحات البلاغية، وتطورها لأحمد مطلوب، مما يعفي من إعادة ذكر ما جاء فيه.

ومن المحدثين الذين عنوا بأسلوب الالتفات بوصفه أسلوبا بلاغيا له حضوره الطاغي والمتميز في كتاب الله وفي كلام العرب، نجد الباحث حسن طبل في كتابه "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية "، أين عرض لمفهوم المصطلح عند البلاغيين العرب القدامى على سعته و شموله، ثم نظر إليه على أنه تحول أو انكسار في نسق التعبير، و ثم حاول عقد مقارنة بين مبحثي البلاغة وعلم الأسلوب في هذه النقطة (الالتفات)، كما أشار إلى أنواع أخرى من الالتفات، كالتفات المعجم من ذكر كلمة ثم الالتفات إليها بأخرى من دائرتها الدلالية، وما يصحب ذلك من آثار دلالية كبرى، كقوله تعالى: « فلبث فيهم ألفة سنة إلا خمسين عاما » صدق الله العظيم، فالتفت من السنة إلى العام.

ليختم الباحث جولته بجدول إحصائي لأساليب الالتفات (باختلاف أنواعها) الواردة في القرآن الكريم.[53] ومما أشار إليه هذا البحث، نوع من الالتفات ذكره ابن الأثير في كتابه "الجامع الكبير" وهو التفات في "مجال العدد"، يقول:

« الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع، ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد فمن ذلك قوله تعالى « وأوحينا إلى موسى و أخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » يونس 87 »[54]

المحصّلة:

لعلّ أن يكون أهم ما نخرج به بعد هذه الإطلالة العجلى أن ما نقف عليه اليوم من تضارب المصطلحات وتداخلها لاسيما في الدراسات النقدية العربية المعاصرة ليس حادثا على الإطلاق، وإنما نجد له بدايات كثيرة في البلاغة العربية القديمة التي كانت من أرقى مصادر النقد العربي القديم إن لم تكن أرقاها بإطلاق.

كما وجدنا أن اختلاف حمولة مصطلح الالتفات من بلاغي لآخر ومن دراسة لأخرى

–وهو ذو الفاعلية الإجرائية لمقاربة النصوص– أعطاه قدرة كبيرة على رصد تضاريس النصوص وتفاصيلها الصغيرة والوقوف على انزياحاتها المكرّسة لجمالياتها وكذا استكناه طرائفها وأغوارها الدلالية.

وأخيرا، فإن لم يكن الالتفات "شجاعة العربية" لأنها تستميز به عما سواها، فلا أقلّ من أن يكون شجاعة النصوص في خرق المألوف والمتواتر وفي تخييب آفاق انتظار القرّاء محققا بذلك أهم ما تصبو إليه النصوص الفنية في فعلها التواصلي مع مستقبليها.

الإحالات:

[1] – جاء في معجم أساس البلاغة: "ومن المجاز: لفته عن رأيه: صرفته وفلان يلفت الكلام لفتا: يرسله على عواهنه لا يبالي كيف جاء"، ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، راجعه وقدم له: إبراهيم قلاتي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1998، ص 604.

[2]– أبو العباس عبد الله بن المعتز ،كتاب البديع ، شرحه و حققه : عرفان مطرجي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان ، ط1 ، 2001 ، ص 73.

[3]– سورة يونس ، الآية 22 .

[4]سورة إبراهيم ، الآية 19 .

[5]– سورة إبراهيم ، الآية 21 .

[6] – جرير، ديوانه، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2003، ص 214.

[7] – يشرحه الباقلاني في إعجازه على أنه اعتراض بقوله: سقيت الغيث، في حين أن الاعتراض عند ابن المعتز باب مستقل لم يورد فيه هذا المثال.

[8] – جرير، ديوانه، م م س، ص 377.

[9] – والبيتان تفصلهما أبيات عدة في ديوان الشاعر.

[10]– أبو الفرج قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تحقيق و تعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، د ط ، دت ، ص 150 .

[11]– المصدر السابق ، ص 150 .

[12] – المصدر نفسه ، ص 151 .

[13]– أبو الهلال العسكري ، كتاب الصناعتين (الكتابة و الشعر) ، حققه و ضبط نصه : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط2 ، 1989 ، ص 438 .

[14]– المصدر السابق، ص 438.

[15] – المصدر السابق، ص 438.

[16] – نفسه، ص 439 .

[17] نفسه، ص 439 .

[18]– نفسه، ص 440 .

[19]– ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية للطباعة و النشر ، لبنان ، ط1 ، 2001 ، ج2 ، ص 57 .

[20] – ينظر : المصدر السابق ، ص 57 .

[21] – المصدر نفسه ، ص 57 .

[22]– ابن رشيق القيرواني، العمدة، ص 57 .

[23]– المصدر السابق، ص 59 .

[24]– ينظر : المصدر نفسه، ص 59 .

[25]– باب الرجوع، في كتاب البديع، ص 74.

[26] – حسن طبل ، التفات في البلاغة القرآنية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1989 ، ص 28 .

[27] – أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم ، ضبطه و كتب هوامشه و علق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط2 ، 1987 ، ص 199 .

[28] – المصدر السابق، ص 199 .

[29] – المصدر نفسه ، ص ص 201 ، 202 .

* سورة ص ، الآية 24 .

** سورة الفرقان ، الآية 44 .

[30]– مفتاح العلوم ، ص 201 .

[31] – المثل السائر ، ج2 ، ص 4 ، الجامع الكبير ، ص 98 ، نقلا عن : أحمد مطلوب ، معجم المصطلحات البلاغية و تطورها (عربي عربي) ، مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان ، ط2 ، 2000 ، ص 175 .

[32]– ينظر : أحمد مطلوب ، معجم المصطلحات البلاغية و تطورها ، ص 177 .

[33] – سورة هود ، الآية 53–54 .

[34] – سورة الأعراف ، الآية 29 .

[35] – ينظر : احمد مطلوب معجم المصطلحات البلاغية و تطورها ، ص 177 .

[36] – سورة فاطر ، الآية 09 .

[37] – سورة النمل ، الآية 87 .

[38] – حسن طبل ، أسلوب التفات في البلاغة القرآنية ، ص 44 .

[39] – المرجع السابق ، ص 43 .

[40] – الخطيب القزويني ، الايضاح في علوم البلاغة ، اعتنى به و راجعه : محمد عبد القادر الفاضلي ، المكتبة العصرية للطباعة و النشر ، بيروت ، ط1 ، ....2001 ، ص 80 .

[41]– الكشاف ، ج1 ، ص 12 عن : احمد مطلوب ، ص 173 .

[42] – ينظر : المرجع السابق (أحمد مطلوب) ، ص 173 .

[43] – ينظر : المرجع السابق ، ص 174 .

[44] – ينظر : المرجع نفسه ، ص 175 .

[45] – المرجع السابق ، ص 177 .

[46] – بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية ، دار المنارة للنشر و التوزيع (جدة) ، دار ابن حزم (بيروت) ، ط4 ، 1977 ، ص 629 .

[47] – سورة العاديات ، الآيتان 6–7 .

[48] – سورة العاديات ، الآية 8 .

[49] – بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية ، ص ص 629–630.

[50] – ينظر: محمد سعيد إسبر و بلال جنيدي ، الشامل : معجم اللغة العربية و مصطلحاتها ، دار العودة ، لبنان ، ط1 ، 1981 ، ص 166 .

[51] – الشامل ، ص 166 .

[52] – إنعام فوال عكاوي ، المعجم المفصل في علوم البلاغة (البديع و البيان و المعاني) ، مراجعة : احمد شمس الدين ،دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط2 ، 1996 .

[53] – ينظر : حسن طبل ، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، دط ، 1998 .

[54] –الجامع الكبير ، 1/1 ، نقلا عن : حسن طبل ، المرجع السابق ، ص 23 .